

بلاغة التقديم والتأخير في سورة التوبة

The eloquence of submission and delay in Surah Al-Tawba

هاجر بوعكاز¹

جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة

bouakkazhadjer1591@gmail.com

سفيان بوعنينة

جامعة 20 أوت 1955 سكيكدة

chehd07032011@gmail.com

تاريخ الوصول 2019/11/20 القبول 2020/11/08 النشر على الخط 2021/01/15

Received 20/11/2019 Accepted 08/11/2020. Published online 15/01/2021

ملخص:

يقوم الترتيب الأصلي للجملة في الكلام العربي على قاعدة معينة، حيث يتصدر المسند والذي هو الفعل الجملة الفعلية، ثم يليه المسند إليه والذي هو الفاعل، أما في الجملة الإسمية فتأتي الرتبة عكسية، حيث يتقدم المسند إليه والذي هو المبتدأ يليه المسند والذي هو الخبر، لكن يحدث أن تخالف هذه القاعدة ويعدل عنها، فيقدم ما حقه التأخير ويؤخر ما حقه التقديم.

تأتي هذه الدراسة لتقديم مبررات وأسرار هذا الكسر القاعدي للكلام، من خلال الحديث عن ثنائية التقديم والتأخير في خطاب مقدس يعج بمثل هذا الضرب الكلامي في "سورة التوبة"، حيث نعمل على استظهار بلاغة هذا العدول القاعدي ومختلف الأبعاد الدلالية والأسرار الريبانية، الضاربة في امتدادات الآيات الكريمة، وقوفا على نقطة تقاطع علم النحو وعلم البلاغة، انطلاقا مما هو معروف بـ "العدول" أو "الانزياح".

الكلمات المفتاحية: علم المعاني، التقديم والتأخير، سورة التوبة، البعد الدلالي، علم النحو.

Abstract:

The original order of the sentence in Arabic is based on a specific rule where the predicate which is the verb precedes the actual sentence followed by the assignee which is the actor. In the nominal sentence, however, the order is inverse where the assignee which is the subject follows the predicate. But it happens to break this rule and the order change.

This study comes to provide justifications for this rule breaking by talking about the binary of submission and delay in a sacred speech filled with this example in Surah Al Tawba, where we will show the eloquence of this rule breaking and its various semantic dimensions and Lord's secrets striking deep in the sacred verses of Quran standing at the intersection of Grammar and Rhetoric.

Key words:

Surah Al Tawba- submission and delay- Semantics- Attribution- Rhetoric-Grammar-semantic dimension

1. مقدمة:

ما يزال البحث في أسرار لغة القرآن ضالة ينشدها كل باحث يروم الوصول إلى مشارف الإعجاز ومنتهى البيان، والبلاغة في لغة مقدسة لا تضاهيها بلاغة أخرى، ويتجلى ذلك في أسلوب النظم الرباني لآيات القرآن الكريم، إذ لم يكن البعد الديني أو الروحي أهم ما يُنشد من هذا النص، بل تعداه إلى البعد الفكري، أين يخاطب العقل امتدادات الآيات مكتشفا حقائق لا تنتهي أبد الدهر.

ومما لا يعزى فيه شك ورب أن لغة هذا الخطاب هي لغة بيان ونظم عجيب، وتستشعر هذا العجب وأنت تنظر إلى الكيفية التي نُظمت بها الآيات، وروعة تعانقها وترتيبها، وفي كمال انسجامها المتأتي من حسن اتساق مفرداتها وألفاظها، وقد تلمسنا هذا ونحن نحاول تقديم دراسة في مبحث علم المعاني، معنونة ببلاغة التقديم والتأخير في سورة التوبة. فإلى أي مدى جاء مبحث التقديم والتأخير في هذه السورة الكريمة حاملا لمفهوم البلاغة القرآنية أولا؟، ولمفهوم الإعجاز اللغوي للنص الرباني المقدس . القرآن ؟.

بما أننا نتعامل مع لغة تحمل الكثير من تفاصيل الآيات الكونية ما ظهر منها وما بطن، فقد يكون هذا الضرب الكلامي . التقديم والتأخير . فيه تفصيل لبعض الحقائق اللغوية ومعاني خفية للآيات الكريمة. تأتي هذه الدراسة القائمة على التحليل المستعينة بآلية التأويل للوقوف على الأبعاد الدلالية والأسرار البلاغية للقرآن الكريم من خلال مبحث التقديم والتأخير، محاولين تلمس فريدة الحدث القرآني ولغته

2. التقديم والتأخير:

2-1 التقديم والتأخير في البلاغة العربية

إن مبحث التقديم والتأخير من المباحث التي جمعت بين عصاري علمين جليلين في اللغة العربية، هما علما النحو والبلاغة، ويندرج تحت فرع علم المعاني الذي به يتم توليد جمل عديدة مختلفة الدلالة بكيفية يراعى فيها الجوار اللغوي، فالكلام الخاص هو الذي يخضع لمقولة "لكل مقام مقال". «وهو المسائل التي بمعرفتها يستطيع المتكلم أن يعبر عن جميع مراده بكلام خاص، وسمي علم المعاني لأن مسأله تعلمك كيف تفيد معاني كثيرة في ألفاظ قليلة»². والتقديم والتأخير أحد أوجه هذا الضرب البياني، وهو عند الجرجاني «باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يقر لك عن بديعه، ويفضي بك إلى لطيفه، ولا تزال ترى شعرا يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قدم فيه شيء، وحول اللفظ عن مكان إلى مكان»³. وواضح من كلام شيخ البلاغة العربية ما لهذا الوجه البلاغي من أسرار قولية فنية وجمالية تستهدف السامع والقارئ للخطاب بالدرجة الأولى، فيتصادم مع ما أطلق عليه "فتنة القول" من خلال هذه التراكيب اللغوية.

2-2 الإسناد في اللغة العربية

² محمد الطاهر بن عاشور: موجز البلاغة، (د، د)، ط01، تونس، (د، ت)، ص 05.

³ عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، ط3، مطبعة المدني، مصر، 1992، ص. 106

تتأسس الجملة في اللغة العربية على الإسناد، ويتصدر المسند إليه (المبتدأ) الجملة الاسمية ثم يليه المسند (الخبر)، أما في الجملة الفعلية فتكون الرتبة عكسية المسند (الفعل) ثم المسند إليه (الفاعل)، وبحوث التقديم والتأخير تقع خلخلة في نظام الجملة فيتصدر المسند المسند إليه في الجملة الاسمية، ويتصدر المسند إليه ومتعلقات الفعل المسند في الجملة الفعلية⁴. ويتضمن هذا العدول اللغوي أغراضاً بلاغية يعمد إليها المتكلم، ليستدرج من خلالها المتلقي للبحث عن مضامين دلالية ومعنوية ضاربة في أصقاع الكلام، خارقاً حدود الظاهر، متوغلاً في آفاق الألفاظ والجمال، كل هذا لأن للتقديم والتأخير معاني لا توجد في المستوى العادي للكلام.

2-3 الأبعاد الدلالية والأسرار البلاغية في سورة التوبة:

سورة التوبة من السور المدنية عدا الآيتين الأخيرتين فهما مكيتان، تقع السورة في الترتيب التاسع من المصحف الشريف، بعد سورة الأنفال، وعدد آيتها مئة وثلاثون، نزلت بعد سورة المائدة، ولها عدة أسماء، منها: (براءة، والتوبة، والمقشقة، والمبعثرة، والمشردة، والمخزية، والفاضحة...)، وهي السورة الوحيدة التي وردت دون بسملة في القرآن الكريم⁵.

لاحظنا. ونحن نحصى مواضع التقديم والتأخير في سورة التوبة. أن أكثر صورها: تقديم متعلقات الفعل "شبه الجملة" بنسبة حملت معها الكثير من الأبعاد الدلالية، والأسرار العميقة التي تدل على علو شأن هذه اللغة وتفردا بطابع القدسية، إضافة إلى المعاني الأصلية التي تأتي مع ظاهر الآيات فإنها تحمل معها أغراضاً بلاغية لها تأويلات، لا يتحصل عليها إلا بكثير من التبصر والتدبر.

قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْفُصُوكُمْ شَيْئاً وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتُوا إِلَيْهِمْ عَهْدُهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾⁶

المتأمل في هذه الآية الكريمة يجد أن التقديم والتأخير قد حصل في تأخير المفعول به (عهدهم) وتقديم شبه الجملة (إليهم)، وليس هذا هو الأصل في ترتيب الوحدات اللغوية لنمطية الجملة العربية، إذ القاعدة تقتضي الترتيب الآتي: فعل + فاعل + مفعول به + شبه جملة (إن اقتضى الكلام والمعنى ورودها). أي أن الأصل في الآية (فأتوا عهدهم إليهم إلى مدتهم).

إن ورود البنية السطحية للجملة بهذا النسق تطلبته البنية العميقة التي يمثلها النحو التعديدي، ليحمل معه سرا ما كان ليحصل إلا بمراعاة معاني النحو وترتيبها، وفق ما جاءت عليه الآية الكريمة، وفي هذا الصدد يرى وعبد القاهر الجرجاني "أن المستوى العميق وهو الذي عبر عنه بأوضاع اللغة، يمثل مرحلة تخلو من البراعة الفنية، وإنما تتحقق هذه البراعة في المستوى السطحي الذي يخلق فيه المبدع تراكيب وهيئات وتآليف من خلال إمكانات النحو الإبداعية"⁷. وعليه فإن ما وقع في الآية من زحزحة عن الترتيب الأصلي،

⁴ ينظر: الطاهر بن عيسى: البلاغة العربية، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط01، دار الكتاب الجديد، لبنان، 2008م، ص 112.

⁵ ينظر: الزمخشري: الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، مكتبة الجيكان، ط01، مكتبة الجيكان، (د، ب)، 1998م، ج 03، ص 05.

⁶ سورة التوبة، الآية: 04.

⁷ محمد عبد المطلب: البلاغة والأسلوبية، مكتبة لبنان ناشرون، ط الأولى، مكتبة لبنان ناشرون، (د، ب)، 1994م، ص 56.

إنما طراً لغرض بلاغي، هو التخصيص، وهذا ما يوضحه سياق الآية، إذ حُصِّص أولئك الذين لم ينقضوا العهد بأنه معهم مستمر ولا عذاب لهم ولا غضب عليهم «ولكن الذين لم يمتثلوا فأتوا عليهم عهدهم، ولا تجزئهم مجراهم، ولا تجعلوا الوفي كالغادر»⁸، فجاء الترتيب على النحو الذي يؤدي بالمعنى إلى ما رسم له.

بعده الدلالي:

بعيدا عن معاني النحو، وبعيدا عن الغرض البلاغي، ألا يمكننا أن نقف عند هذا الضرب اللغوي في هذه الآية الكريمة على بعد دلالي وسر خفي ضارب في آفاقها؟

ونحن نقرأ الآية محاولين إيجاد تأويل لهذا السبب (تقديم ما حقه التأخير)، تطالعنا أول ملاحظة وهي أن ورود التركيب دون تقديم أو تأخير (فأتوا عهدهم إليهم إلى مدتهم) فيه عدم تناسق لفظي بين الوحدات اللسانية الموضحة، لا تستسيغه الأذن لسماعه ولا اللسان في نطقه وهذا مناف تاما للغة القرآن «بين كل الآداب الدينية الموجودة في العالم فإن القرآن الكريم كتاب فريد بصورة مطلقة، صياغته وحفظه معجزتان»⁹. ولو لم يحدث هذا التقديم لكانت الصياغة مهلهلة غير قارة مع الأسلوب الرباني.

وعندما كانت الآيات الأولى من السورة وحتى هذه الآية يحملها تحكي عن الذين نقضوا العهد، كان المعنى والمصطلح الجوهر فيها هو "العهد"، فلم قدمت شبه الجملة (إليهم) عليه؟

نتلمس في هذا الخطاب أدبا ربانيا عجيبا ورفيعا مع الفئة التي حافظت على العهد ولم تنقضه، والذين هم . في أصلهم . مشركون، فكما أن العهد ميثاق له فحواه وشأنه عند المسلمين، فإن وفاءهم وعدم غدريهم وأدبهم استحق معه أدبا آخر أعظم منه، جاء من الله سبحانه وتعالى، فقدموا على العهد ردا على أدبهم.

قال تعالى ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾¹⁰

حدث التقديم والتأخير في تقديم الفاعل أو المسند إليه (أحد)، وآخر الفعل (المسند)، إذ الأصل في الكلام (وإن استجارك أحد من المشركين فأجره).

يندرج هذا الضرب البلاغي (التقديم والتأخير) ضمن ما اصطلح عليه علماء العربية بـ "العدول"، ويكون ذلك بمخالفة القاعدة الأصل وإيراد نظام تركيب جديد يُتجاوز به المعنى الأول محققا ما يعرف بالجمالية والشعرية «وكل ما كان فيه، على الجملة مجاز واتساع وعدول باللفظ عن الظاهر، فما ضرب من هذه الضروب إلا وهو إذا وقع على الصواب وعلى ما ينبغي أوجب الفضل والمزية»¹¹، ويبدو الغرض من خلخلة قطبي العملية الإسنادية بيان الاهتمام بالمسند إليه (أحد) على المسند (استجارك)، «ليكون

⁸الزمخشري: الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، ج 03، ص 12

⁹أحمد ديدات: القرآن معجزة المعجزات، تر: علي عثمان، المختار الإسلامي، (د، ط)، المختار الإسلامي، (د، ب)، (د، س) ص 49.

¹⁰سورة التوبة، الآية: 06.

¹¹عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز ص 430

أول ما يقرع السمع فيقع المسند بعد ذلك من نفس السامع موقع التمكن»¹²، والاهتمام بالمتقدم من أكثر الأغراض البلاغية التي يرمي إليها المرسل عند استعمال هذه التقنية النحوية البلاغية.

بعده الدلالي:

يمكننا . إلى جانب غاية العدول المشار إليها . أن نستكشف بعدا دلاليا آخر، إذ قد لا يكون طلب الجوار في المأمّن فقط، وإنما حبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ويكون هذا من عموم المسلمين، لكن لفظة "أحد" وردت في نسق دال على عموم المشركين، فجاء السياق العام للآية بعد آية توضح ما ينتظر أولئك الذين نقضوا العهد من رد سحيق بعد الأشهر الحرم، فانبثقت هذه الآية من الآية التي قبلها. فكان الانسب البدء بلفظ "أحد" الدالة على المشركين على لفظ "استجارك" الحاملة لمعاني الأمن والصحة والجوار، وهذا يناقض التركيب اللغوي العام للآيات.

توضح هذه الآية الكريمة . إلى حد بعيد . ما للقرآن من نظم عجيب، تتكامل فيه المعاني ظاهرة في بنى لسانية دقيقة التركيب، فعندما قال "وإن أحد من المشركين استجارك" ولو قال "وإن استجارك أحد من المشركين" أليس في الجملة الأولى تتابع لفظي ومن قبله معنوي للآية التي قبلها! «ولا ترى نظما أحسن تأليفاً وأشدّ تلاؤماً وتشاكلاً من نظمه»¹³. إن عملية التقديم والتأخير التي حدثت في هذه الآية مثال جلي لهذا الترابط والتناسق العجيب المحكم الرصين بين آيات الذكر الحكيم، والذي يصدق معه لفظ الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم.

وللنظر معا إلى قوله تعالى : ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾¹⁴

نجد في هذه الآية أكثر من تقديم، فأما الأول فإن الآية افتتحت باسم استفهام (كيف) في محل رفع خبر (يكون) واسمها (عهد)، وقبل ان يأتي باسمها استبق بتقديم شبه الجملة (للمشركين)، ليكون الأصل في الكلام بمراعاة الترتيب النحوي: (كيف يكون عهد للمشركين).

وسبب تقديم المسند (كيف) على المسند إليه (عهد) هو أن أسماء الاستفهام لها حق الصدارة في الكلام؛ أي أن اسمها قدم وجوبا ولو آخر لم استقام الكلام البتة، فالتقديم في هذه الحالة واجب أوجبته القاعدة النحوية، هذه القاعدة التي تجاوزت حدود النحو لتتعاقد مع البلاغة إذ يظهر معه غرض التعجب، الذي امتد معناه إلى التجاوز القاعدي للبنى التي أتت بعده.

بعده الدلالي:

¹² محمد الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، (د ط)، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م، ج10، ص 118.

¹³ الخطابي: بيان إعجاز القرآن ضمن كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله أحمد، محمد زغلول سلام، دار المعارف، ط 03،

دار المعارف، مصر، (د، س)، ص 27.

¹⁴ سورة التوبة، الآية: 07.

أضفى تصدّر الاستفهام للآية الكريمة معنى التعجب، حاملا معه دلالة الاستشراق المستقبلي لكل مسلم، وهو الحذر الأبدي من المشركين ويظهر في اقتران "كيف" بالفعل المضارع "يكون" والذي يحمل معنى الاستمرارية والدوام، ومعنى آخر "لا ثقة في كل كافر، بل عجا كيف تثقون بهذه الفئة الخبيثة طينتها".

وعندما نستقرئ بقية الآية في تقديم شبه الجملة على اسم يكون، فإننا نلمس نظما عجيبا، فلننظر إلى هذه الآية بحذف البنية الأولى والثانية، لتصبح العبارة: "للمشركين عهد عند الله"، ثم لننظر إلى: "عهد للمشركين عند الله"، فلفظة "عهد" جاءت في الجملة الأولى وسطا بين المشركين ورب العالمين ورسوله، لأن ذلك العهد كان فعلا هو الوسيط المشركين إلى الله ورسوله، بخلاف ما نجده في الجملة الثانية، إذ لا نجد قوة في المعنى والدلالة مقارنة بالجملة الأولى. كما اقترنت لفظة "عهد" بلفظ الجلالة ليدل أن هذا العهد الكاذب باق عند الله يذكركم به يوم لا تنفع شفاعة الشافعين. «فبينما نجد أن الأسلوب الذي لا يتعامل مع الكلمات المقدسة يخضع لعوامل ثلاث صفات المبدع، وكذا العوامل المختلفة المؤثرة في إبداعه كالعوامل النفسية والثقافية وتأثير البيئة والمجتمع والعادات والتقاليد واختلاف المواهب.. إلخ، فإننا حتما نستبعد هذه الأشياء من النص القرآني الذي هو كلام الله»¹⁵. المعجز الذي ينظم بما يحقق الإبلاغ، والبلاغة، والدلالة جميعا.

قال تعالى: ﴿لَا يَرْفُقُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾¹⁶

والأصل (لا يرقبون إلا ولا ذمة في مؤمن وأولئك هم المعتدون)، فقدم شبه الجملة (في مؤمن) على المفعول به (إلا)، و«إنها بشكل عام خرق لقانون الوحدات اللغوية، خرق ينتج علاقات جديدة، ويفتح آفاقا واسعة أمام المبدع والمتلقي أيضا»¹⁷، لأن منشئ الخطاب لا يجد في المستوى العادي للغة إلا البعض من حاجاته التعبيرية، ولا بد من اجتياز الكلام المبتذل الذي يستطيع عامة الناس إنشاءه، فيكون إلزاما عليه قول ما لا يمكن قوله من طرف الكل حتى يصنع شاعرية الكلام وتفرد الإبداعي، هذا عن اللغة البشرية، فكيف عن لغة ربانية مقدسة؟

إن العلاقة التي نتجت من خلال العدول الوارد في الآية الكريمة، هي علاقة جديدة لأنها حملت معنى إضافيا، وبعبارة أخرى: عندما تتجاوز القاعدة النحوية إلى المستوى الإبداعي (تقديم ما حقه التأخير) تولد البلاغة وتلقي بظلالها على الكلام، ونرى أن الغاية من هذا العدول التخصيص؛ أي تخصيص الفئة المؤمنة على غيرها من الكفار والمشركين، فكما أن صفة الغدر والخيانة ملازمة للكافر، فإن الإل والذمة لا تكون مع المؤمن فقط، فقد تكون من الكافر للكافر.

بعده الدلالي:

¹⁵ منير محمود المسيري: دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم، مكتبة وهبة، ط01، مكتبة وهبة، القاهرة، 2005م، ص 19.

¹⁶ سورة التوبة، الآية: 10.

¹⁷ مسعود بودوخة: الأسلوبية والبلاغة العربية، بيت الحكمة، ط01، بيت الحكمة، الجزائر، 2015م، ص 134.

يقوم النحو بمهمته في ترتيب الوحدات اللغوية، وتأتي البلاغة لتوضيح سبب كسر القاعدة النحوية والتي تكون لغايات بعيدة، موعلة في نفس المبدع، تنتج منها حركة فنية تستطرب بها النفس وتأنس، أما في الخطاب القرآني فإن الغرض البلاغي لا يكفي لتفسير علة العدول اللغوي، فتأتي آلية التأويل لتستنتج ما وراء هذه اللغة ولتصل إلى دلالة مختلفة عن النحو والبلاغة. عندما نتأمل البنية "يرقبون" نجد فيها مزارعا يحمل معنى الاستمرارية والدوام، ثم وقع التقديم والتأخير؛ أي ربط هذه البنية وما تحمله من دلالة بالفئة المخصوصة الذكر وهم المؤمنون، والكلام هنا موجه لكل مؤمن في كل زمان وفي كل مكان، "أن خذوا حذرکم من کل کافر"، إن هذه الدلالة وبهذا الامتداد، تقرّر مصداقية ما نعيشه اليوم بكل ما تؤديه حروفها من المعاني، بما للكافر من غدر وخيانة وضغينة اتجاه المؤمنين في كل زمان وفي كل مكان.

قال تعالى ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلِلُونَ عَامًا وَيُحَرِّمُونَ عَامًا لِّيُؤْاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾¹⁸

نجد في هذه الآية موضعين للتقديم والتأخير، الأول تقديم شبه الجملة (به) على الاسم الموصول (الذين) والذي هو في محل رفع فاعل، ليكون الأصل في الكلام (إنما النسيء زيادة في الكفر يضل الذين كفروا به)، والثاني تقديم شبه الجملة (لهم) على نائب الفاعل (سوء)، ليكون الأصل في الكلام (زين سوء عملهم لهم)، ويظهر في الأول أن الغرض البلاغي هو التنبيه من أن المقدم فيه إنكار، إذ شبه الجملة عائدة على النسيء «والنسيء عند العرب تأخير يجعلونه لشهر حرام فيصيرونه حلالا ويحرمون شهرا آخر من الأشهر الحلال عوضا عنه في عامه (...) [فقد كان العرب] أصحاب حروب وغارات فكان يشق عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر متوالية لا يغيرون فيها فقالوا لئن تواتت علينا ثلاثة أشهر لا نصيب فيها شيئا لنهلكن»¹⁹، فلجأوا إلى هذه الحيلة. أما الموضع الثاني فإن سياق الآية يوضح أن الغرض من التقديم هو غرض إنكاري، ذلك أن كل عملهم حرام، وفيه تعد على حدود الله، إذ أحلوا ما حرم الله (النسيء)، فخذلهم الله بما كسبت أيديهم، وقد فحسبوا أعمالهم القبيحة حسنة²⁰.

بعده الدلالي:

عندما نحاول تأويل الآية الكريمة، محاولة لكشف السر في وقوع هذا التجاوز في نظام الجملة العادي، نجد في الموضع الأول أن تقديم شبه الجملة (به) العائد على النسيء لعظم ما يحمله هذا اللفظ من معاني ودلالات تقول جميعها بالممارسة الدينية الخاطئة والمضللة التي لا تتفق مع شرعة الله التي ارتضاها في الأرض، فالأشهر الحرم أربعة ثابتة لا تتغير من شهر لآخر، وهي ذو القعدة، وذو الحجة، ومحرم، ورجب، و«قد احتفظوا بالعدد وأفسدوا المعدود»²¹ وهو ما يبرر سبب التقديم والتأخير من تركيبة شبه الجملة في

¹⁸سورة التوبة، الآية: 37.

¹⁹محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ج 10، ص 189.

²⁰ينظر: الزنجشيري: الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأفاويل في وجه التأويل، ج 03، ص 43

²¹محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ج 10، ص 193.

ذاتها، حيث تتكون من وحدتين حرف الجر "الباء" والضمير المتصل "الهاء"، وأن حرف الجر «أصل معانيها الإلصاق»²² فكأن النسيء التصقت بمؤلاء القوم وصارت عندهم سنة يسنونها كلما بدا لهم.

أما في الموضع الثاني فجاءت البنية الأولى (زئير)، فعل ماض مبني للمجهول ثم أعقبته شبه الجملة (لهم) العائدة على الكفار، ثم نائب الفاعل (سوء)، ومما لا ريب فيه أن ورود الجملة بهذا التشكيل فيه دلالة ما، فأما ذكر الفعل المبني للمجهول فيدل على عدم فائدة ذكر الفاعل للعلم به، وأما تقديم شبه الجملة فيوحي بغضب رباني عليهم، غضب خفي نستطيع أن نحس به على هذا الترتيب، لا نستطيع أن نحس به إذا قلنا "زين سوء اعمالهم لهم".

قال تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾²³ تتضمن هذه الآية أكثر من تقديم وتأخير، وهو ليس توظيفاً عابراً، بل توظيف مقصود ومحكم في جميع أبعاده، فنحن إذ نتنقل من آية إلى أخرى يطالعنا التقديم والتأخير كأحد أبرز الأساليب التي ضمنت في هذه السورة الكريمة، يأتي المسند (حسبنا) متقدماً على المسند إليه (الله)، وهو تقديم للخبر على المبتدأ، ثم تأتي شبه الجملة (إلى الله) متقدمة على خبر إن (راغبون). ليكون الأصل في الكلام: (وقالوا: الله حسبنا سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا راغبون إلى الله).

أخذت هذه الهيئة النحوية مجرى أسلوبيا بيانيا في السورة لمقاصد إلهية، فالخطاب الرباني يجمع بين ما كان وما يكون وما سيكون، هو نص ديني تتوزع فيه البنيات الكلامية بطريقة تتوالد فيها الدلالات وتكاثر، وتحيل إلى أبعد ما يتصور، وقد دل التقديم في هذه الآية على غرض القصر أي أن الحسب والرغبة لله وحده لا إلى غيره، هو وحده المخصوص.

بعده الدلالي:

ما يزيد دھولنا وعجزنا أمام هذه اللغة، أننا نقف أمام مستوى لغوي واحد وهو المستوى التركيبي، وأنا نتعامل مع ضرب واحد منه و هو "التقديم والتأخير"، فالنظر إلى الكيفية التي تأتلف بها الفاظ القرآن الكريم متعاقبة؛ لفظة تكمل اللفظة التي بعدها، يقودنا إلى القراءة الآتية:

قدم الخبر (حَسْبُنَا) مراعاة للبنية التي بعده وهي "سيؤتينا" لتتكامل معها لفظاً ومعنى، أي تكون على هذه الهيئة (الله سيؤتينا) وهي جملة إسمية حاملة لمعنى الثبات، أي من جعل الله حسبه فإن الله سيؤتيه سؤله عاجلاً أو آجلاً، ويتعزز هذا التأويل من خلال مراعاة البنية التي بعد المبتدأ المؤخر "سيؤتينا"، حيث ترابطت هذه البنية بالبنية التي بعدها وهي "الله"، أي تكون على هذه الهيئة (سيؤتينا الله من فضله) وهي جملة فعلية حاملة لدلالة التغير والتبدل.

وعندما يتكامل معنى الجملة الأولى مع معنى الجملة الثانية، نصل إلى نتيجة وهي أن الفرد لو كانت نفسه مطمئنة بعتاء الله، راضية بما قسم الله لها، ثابتة راجعة إليه، فإن التغير والتجديد قادم لا محالة.

²² ينظر: المرادي: الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق: فخر الدين قباوة، محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1992، ص 36.

²³ سورة التوبة، الآية: 59.

ثم إن التقديم حصل تجنباً لوقوع التضاد والتنافر بين معاني الآية، فلو قال: (الله حسبنا سيؤتينا الله) لاجتمعت بنية (حسبنا) بنية (سيؤتينا) وهذا يتنافى مع معنى الرضى.

أما تقديم شبه الجملة (إلى الله) على خبر (راغبون) فيؤكد تتابع تماسك الوحدات اللغوية لفظاً ومعنى، فمع تلك النفسية الثابتة على الرضى، فإن همها الأكبر هو الله جل جلاله، فقبل أن يفصح الخبر عن نفسه، فإن المعنى ينبثق مع تلك الألفاظ التي سبقته، فالرضى يؤول حتماً إلى محبة في الله.

قال تعالى ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾²⁴

والضعفاء هم الهرمى، والذين لا يجدون ما ينفقون هم الفقراء، والنصح لله ورسوله هو الإيمان بهما وطاعتهما في سرا وعلانية²⁵

قدمت في هذه الآية شبه الجملة (على الضعفاء، على المرضى، على الذين لا يجدون ما ينفقون) والتي هي في محل نصب خبر ليس على اسمها (حرج)، أما في النحو الذي عده البعض أهم مظاهر الإبداع الأسلوبى، فإن مخالفة القاعدة والحجاء بصيغ جديدة تصطرخ فيها العبارات وتتكاثر الدلالات وتنساب على أكثر من صعيد، بما يخرج هذا (الانزياح) كما يسمى في الدراسات الأسلوبية المعاصرة إلى أغراض بلاغية «نقصد بانزياح البناء النحوي، تلك التحولات التي تمس التراكيب كالتقديم والتأخير»²⁶ وظاهر من الآية أن الغرض البلاغي هو غرض تخصيصي، فقد غفر للذين ذكروا في الآية من الجهاد لعله المرض والضعف والفقير، وكل هذه الأعراض حالت دون المشاركة في الجهاد.

بعده الدلالي

إن من أبعاد ما حملته هذه الآية هو الكشف عن جو غريب سائد في ظلال هذه التراكيب، هو جو الجهاد والحرب، وجو الفتنة حين يتولى الفرد، ففي الابتلاء أول ما يصاب هو النفس التي تنكسر وتتألم، ونعتقد أن هذه الآية استهلكت بهذا النمط (تقديم ما حقه التأخير) مراعاة لتلك النفوس لما فيها من وهن وضعف شديدين، ولما اتسمت به هذه الفئة من صدق إيماني رفيع الدرجة في الجهاد، ومشاركة الرسول في الفتح، فكان الله سبحانه تعالى أثر تقديمهم في الخطاب أولاً اهتماماً وتنبيهاً، ثم يأتي الخبر مؤخراً ليرتبط بالبنية التي بعده (إذا نصحو الله ورسوله)، أي أن رفع الإثم والخرج مرتبط بهذا الشرط ارتباطاً مباشراً، فلو قيل (لا حرج) لم يكن الكلام من ناحية المعنى أقوى وأدل من الورود الأصلي للآية.

²⁴ سورة التوبة، الآية: 91.

²⁵ ينظر: الزمخشري: الكشاف، ج 03، ص 61.

²⁶ مسعود بودوخة: دراسات أسلوبية في تفسير الزمخشري، بيت الحكمة، ط 1، بيت الحكمة، الجزائر، 2015م، ص 21.

4. خاتمة:

إن من أهم النتائج المتوصل إليها هو أن مبحث التقديم والتأخير ضرب كلامي فيه من الحسن والجمال ما يعكس حسن وجمال اللغة العربية، يتضح هذا في الكيفية التي تتوالد فيها المعاني وتتكاثر، ذلك أن الكلام لا يتسع له معنى ودلالة إلا بكسر القاعدة المتواترة، وقد لا حظنا كيف يجمد المعنى دون هذا العدول، وكيف يحجب إن هو اجتاز المعتاد والسائد. أيضا من النتائج هو الإقرار أن المعاني المتفتقة عن هذا الوجه البلاغي لا يتحصل عليه بسهولة، بل تجده خفيا في قاع الخطاب. وصولا إلى مراد القائل.

إن مبحث التقديم والتأخير عينة عن الاتساق والانسجام العجيب للآيات القرآنية الكريمة، ويتأكد معه أن لغة هذا الكتاب الرباني هو معجز في لغته البيانية.

ونحن نحلل تلمسنا نقطة تلاقت فيها البلاغة مع النحو، فحين ينتهك النحو (تقديم ما حقه التأخير وتأخير ما حقه التقديم) تولد البلاغة وتتطاول عليه، وذلك من خلال جمالية المعنى الجديد والدلالة الخفية. ومع هذه النتائج نقف عند سلامة الفرضية التي انطلقنا منها، فالتقديم والتأخير يحمل دلالة خفية من ورائه، وعثرنا معه عن حقيقة التفرد الرباني المحكم في هذه اللغة. اللغة العربية.

وما نستطيع قوله في نهاية هذه الدراسة، هو أن ظاهرة التقديم والتأخير ظاهرة بارزة ومميّزة، ومميّزة في سورة التوبة، وهو ما يقود إلى القول. بالضرورة، استنادا إلى هذه القطرة. أن لا غرابة في كون القرآن الكريم نموذج كل الخطابات الإنسانية، فمهما تعالت صيحات الجمالية والشعرية والفتنة المنبعثة من النصوص الشعرية المعاصرة، فإنها تبقى تنظر في استحياء شديد إلى هذا النص الرباني، «تلك هي لغة القرآن، بين إيصال خبر، وإحداث أثر، تسلك في ذلك أسلوبا متعاليا في بنيته»²⁷، ودلالاته.

هو نص يخاطب كل فرد في كل مكان وزمان من خلال هذه التراكمات اللغوية، حيث يعمل كل عدول إلى استحضار دلالة خفية في آفاق الآية، وبالتعمق فيه نرى الخطاب وكأنه كتب بالأمس أو اليوم، في ملمح بسيط يتجلى من خلال ثنائية التقديم والتأخير فقط.

²⁷نعيمه زواخ : البنية الإيقاعية في الخطاب القرآني، كنوز الحكمة، ط01، كنوز الحكمة، الجزائر، 2012م، ص 07.

6. قائمة المراجع:

- القرآن الكريم براوية ورش عن نافع.
- أحمد ديدات: القرآن معجزة المعجزات، تر: علي عثمان، المختار الإسلامي، (د، ط)، المختار الإسلامي، (د، ب)، (د، س)، ص 49.
- الخطابي: بيان إعجاز القرآن ضمن كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله أحمد، محمد زغللول سلام، دار المعارف، ط 03، دار المعارف، مصر، (د، س)، ص 27.
- الزمخشري: الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأفاويل في وجوه التأويل، تحقيق: عادل احمد عبد الموجود، علي محمد معوض، مكتبة الجيكان، ط 01، مكتبة الجيكان، (د، ب)، 1998م، ج 03، ص 05، 12، ص 43، ص 61.
- الطاهر بن عيسى: البلاغة العربية، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، ط 01، 2008م، ص 112.
- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، ط 3، مطبعة المدني، مصر، 1992، ص 106، 430.
- المرادي: الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق: فخر الدين قباوة، محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، ط 1، دار الكتب العلمية، لبنان، 1992م، ص 3.
- محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، (د ط)، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م، ج 10، ص 118، ص 189، ص 193.
- محمد الطاهر بن عاشور: موجز البلاغة، (د، د، ن) ط 01، تونس، (د، ت)، ص 05.
- محمد عبد المطلب: البلاغة والأسلوبية، مكتبة لبنان ناشرون، ط الأولى، مكتبة لبنان ناشرون، (د، ب)، 1994م، ص 56.
- مسعود بودوخة: الأسلوبية والبلاغة العربية، بيت الحكمة، ط 01، بيت الحكمة، الجزائر، 2015م، ص 134.
- مسعود بودوخة: دراسات أسلوبية في تفسير الزمخشري، بيت الحكمة، ط 1، بيت الحكمة، الجزائر، 2015م، ص 21.
- منير محمود المسيري: دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم، مكتبة وهبة، ط 01، مكتبة وهبة، القاهرة، 2005م، ص 19.
- نعيمة زواخ: البنية الإيقاعية في الخطاب القرآني، كنوز الحكمة، ط 01، كنوز الحكمة، الجزائر، 2012م، ص 07.